البيت الحــرام

بنــاؤه . رؤيتــه . فضلــه .

إذا ما رأته العين زال ظلامها وزال عن القلب الكئيب التألم

□ بنـــاء الكعبـــة □

قال العلّامة الفاسي في كتابه [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين] :

بُنيت الكعبة المعظمة مرات . وفي عدد بنائها خلاف .

ويتحصل من مجموع ما قيل في ذلك : أنها بنيت عشر مرات :

منها : بناء الملائكـة .
ومنها : بناء آدم .
ومنها : بناء أولاده .
ومنها : بناء الخليل على جميعهم السلام .
ومنها : بناء العمالـة .
ومنها : بناء جُرْهـم .
ومنها : بناء قصي بن كلاب .
ومنها : بناء قريش .
ومنها : بناء عبد الله بن الزبير .
ومنها : بناء الحجاج بن يوسف الثقفي .

وفي إطلاق العبارة بأنه بنى الكعبة تجوز ، لأنه ما بنى إلّا بعضها ، ولولا أن السهيلي والنواوي ذكرا ذلك لما ذكرته .

وجميع ما ذكرناه من بناء الكعبة ذكره الأزرقي ، إلا بناء قصي .

فإنه لم يذكره ، وذكره الزبير بن بكار في موضعين من كتابه ، والفاكهي ، وابن عابد ، وغيرهم .

وهو أول من سقفها ، وقريش أول من رفع بابها ، ليُدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا .

وابن الزبير – رضي الله عنهما – أول من جعل لها بابين ، وبناؤه لها ثابت ، وكذلك بناء قريش والخليل .

وما عدا ذلك غير ثابت ، لضعف سند الأخبار الواردة به .

وكلام السهيلي يقتضي أن : شيث بن آدم أول من بناها .

وفي الأزرقي : ما يدل لتقدم بناء آدم على بناء الملائكة(١) .

عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال : لما أهبط الله آدم من الجنة قال : « إني مهبط معك بيتًا أو منزلًا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ، ويصلى عنده كما يصلي حول عرشي » ، فلما كان زمن الطوفان رُفع ، وكان الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه ، فبوّأه الله إبراهيم فبناه ، من خمسة أجبل :

حراء، وثبير، ولبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر، فتمتعوا منه ما استطعتم(٢) .

وعنه : وضع البيت قبل الأرض بألفي سنة ، فكان البيت ربدة بيضاء ، حتى كان العرش على الماء ، وكانت الأرض تحته كأنها خسفة ، فدحيت منه(٣) .

وقال ابن جرير ، عن ابن عباس : وضع البيت على أركان الماء ، على أربعة أركان ، قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام ، ثم دحيت الأرض من تحت البيت .

وعن عبد الرزاق ، قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا بألفي سنة ، وأركانه في الأرض السابعة .

قال الحافظ في [الفتح] : روى ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : لما كان زمن الطوفان رفع البيت ، وكان الأنبياء يحجونه ولا

(١) العقد الثمين. للفاسي المكي ١ /٤٧ – ٤٨ ، طبع أنصار السنة .

(٢ ، ٣) رواه الطبراني في الكبير موقوفا، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ٣ /٢٨٨ .

يعلمون مكانه ، حتى بوّأه الله لإبراهيم وأعلمه مكانه[(١)] .

● بنــاء آدم :

قال الحافظ في [الفتح] :

روى البيهقي في [الدلائل] من طريق أخرى ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « بعث الله جبريل إلى آدم فأمره ببناء البيت ، فبناه آدم ، ثم أمره بالطواف به ، وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع للناس »[(*)] .

وروى عبد الرزاق عن عطاء ، أن آدم أول من بنى البيت ، وقيل: بنته الملائكة قبله .

وعن وهب بن منبه ، أول من بناه شيث بن آدم ، والأول أثبت[(٢)] .

قال الحافظ في [الفتح] :

« عن قتادة قال : وضع الله البيت مع آدم لمّا هبط ، ففقد أصوات الملائكة وتسبيحهم ، فقال الله له : يا آدم إني قد أهبطت بيتًا يطاف به كما يطاف حول عرشي ، فانطلق إليه ، فخرج آدم إلى مكة ، وكان قد هبط بالهند ومدّ له في خطوه فأتى البيت فطاف به »[(٣)] .

قال ابن الجوزي : لما علا كعب الكعبة على سائر البقاع ، بقاع العلم ، أبرزتها كف الإيجاد كالكاعب ، قبل وجود الأرض ، وكان آدم أول من ساس الأساس ، ثم بيّت للبيت طواف الطوفان ، فحل ما حل ازرار حلل الحلل .

(١) الفتح ٦ /٤٦٣ .

(*) قال ابن كثير في تفسيره ٢ /٦٤ : « ضعيف ، فإنه كما ترى من مفردات ابن لهيعة . الأشبه والله أعلم أن يكون هذا موقوفا على عبد الله بن عمرو ، ويكون من الزاملتين التي أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب » .

(٢) الفتح ٦ /٤٦٣ .

(٣) الفتح ٦ /٤٧١ .

• بنـاء إبراهيم للبيت :

قال تعالى : ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ [البقرة :١٢٥] .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **أن طهرا** ﴾ قال : من الأوثان .

قال الحسن البصري : أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ، ولا يصيبه من ذلك شيء ! .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير : من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس .

والعاكفين: المقيمين فيه. وهو قول قتادة والربيع بن أنس وسعيد بن جبير .

قال ابن جرير رحمه الله : فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهير من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك .

ثم أورد سؤالا فقال : فإن قيل : فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه ؟ وأجاب بوجهين :

أحدهمـــا : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ؛ ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماما يقتدى به .
قلت – أي ابن كثير – وهذا الجواب مفرّع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد ﷺ .

الجواب الثاني : أنه أمرهما أن يخلصا بناءه لله وحده لا شريك له ، فيبنياه مطهّرًا من الشرك والريب .

وملخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن

يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ [الحج : ٢٦] .

قال ابن كثير : « أي أرشدناه إليه ، وسلمناه له ، وأذنا له في بنائه ، وقد استدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وإنه لم يُبْنَ قبله » .

قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ [آل عمران:٩٦].

قال ابن كثير : « أول بيت وضع لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم ، يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده » .

قال علي : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله .

قال ابن كثير (٢ /٦٤) : « وزعم الذي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا . والصحيح قول علي » .

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام » . قال : قلتُ : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم كان بينهما ؟ قال : « أربعون سنة . ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فَصَلِّه ، فإن الفضل فيه » .

قال الحافظ ابن حجر في [الفتح] (٦ /٤٧٠ /٤٧١) :

« قال ابن الجوزي : فيه إشكال ؛ لأن إبراهيم بنى الكعبة ، وسليمان بنى بيت المقدس وبينهما أكثر من ألف سنة ، انتهى . ومستنده في أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى ما رواه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا بإسناد صحيح « أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله

تعالى خلالا ثلاثا » الحديث ، وفي الطبراني من حديث رافع بن عميرة « أن داود عليه السلام ابتدأ ببناء بيت المقدس ، ثم أوحى الله إليه : إني لأقضي بناءه على يد سليمان » ثم قال ابن الجوزي : وجوابه أن الإشارة إلى أول البناء ووضع أساس المسجد وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس فقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم ثم انتشر ولده في الأرض فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس ، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن ، وكذا قال القرطبي : أن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتدأ وضعهما لهما ، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما » .

ثم ذكر أقوالًا عدة وقال : « لكن الاحتمال الذي ذكره ابن الجوزي أوجه . وقد وجدت ما يشهد له ويؤيد قول من قال : إن آدم هو الذي أسس كلا من المسجدين ، فذكر ابن هشام في كتاب [التيجان] : أن آدم لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس ، وأن يبنيه فبناه ونسك فيه ، وبناء آدم للبيت مشهور »[(1)] .

وقال الطبري فيما رواه عن السُّدي : لما عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين انطلق إبراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت ؛ فبعث الله ريحا يقال لها : ريح الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهما ما حول البيت عن أساس البيت الأول وأتبعاها بالمعاول يحفران ؛ حتى وضعا الأساس فذلك حين يقول : ﴿ **وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت** »[(2)] .

قال تعالى : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ [البقرة :١٢٧] .

القواعد : جمع قاعدة ، وهي السارية والأساس .

(١) فتح الباري ٦ /٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢) ابن جرير الطبري ٩ /١٠٥ - ١٠٦ .

في حديث ابن عباس في البخاري عن إبراهيم وبنائه للبيت ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإنَّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا – وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها – قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني . حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يَبْني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان: ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ ، قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ .

قال ابن جرير : لما قدم إبراهيم مكة ؛ رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة ، فيه مثل الرأس ، فكلمه ، فقال : يا إبراهيم ، أبنِ على ظلي – أو قال : على قدري – .

عن سعيد بن المسيب أن إبراهيم أقبل من أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوءِ البيت كما تتبوّأ العنكبوت بيتا ، قال : فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلًا .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت** ﴾ قال : القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك .

وفي حديث أبي جهم: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن اتبع السكينة ، فحلّقت على موضع البيت كأنها سحابة ، فحفرا يريدان أساس آدم الأول .

قال ابن حجر في مجيء إسماعيل بالحجر الأسود : وفي رواية إبراهيم ابن نافع : حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام . زاد في حديث عثمان : ونزل عليه الركن والمقام فكان إبراهيم يقوم على

المقام يبني عليه ، ويرفعه له إسماعيل ، فلما بلغ الموضع الذي فيه الركن وضعه يومئذ موضعه ، وأخذ المقام فجعله لاصقا بالبيت .

وفي حديث أبي جهم : ذهب إسماعيل إلى الوادي، يطلب حجرا ، فنزل جبريل بالحجر الأسود ، وقد كان رفع إلى السماء حين غرقت الأرض ، فلما جاء إسماعيل فرأى الحجر الأسود ، قال : من أين هذا ؟ من جاءك به ؟ .

قال إبراهيم : من لم يكلني إليك ولا إلى حجرك .

يالله ... ما أروع توكل الخليل عليه السلام على الجليل ، توكل راضيا بمن تولاه يوم ﴿ حرقوه ﴾ ... توكل وبنى وهو الشيخ الطاعن في السن .

عن ابن عباس قال : والله ما بنياه بقصة ولا مدر ، ولا كان لهما من السعة والأعوان ما يسقفانه .

كان وهيب بن الورد إذا قرأ : **﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾** . يبكي ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن ، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك . يعمل أفضل عمل ويخاف أن لا يقبل منه .

قال ابن كثير (١ /٢٤٠) : « ذكر الله أن البيت إنما أُسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة قيامها وركوعها وسجودها ، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم **﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾** وفي هذه الآية الكريمة إنما ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام.

وفي ذلك أيضا رد على من لا يحجه من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك ، وللاعتكاف والصلاة عنده ، وهم لا يفعلون شيئا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله

لهم !!، وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم السلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ » اهـ .

قال تعالى : ﴿ **وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود** ﴾ [الحج :٢٦] .

قال ابن كثير : « اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لاشريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ، والقائمين : أي في الصلاة ولهذا قال جل وعلا : ﴿ **والركع السجود** ﴾ فقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه » .

قال ابن الجوزي في [المدهش] : « لمّا أمر ببناء البيت ؛ حار من لا يعلم مراد الآمر ، فإذا سحابة تسحب ذيل الدليل . قد قدها على قدر البيت ، فوقفت فنادت يا إبراهيم ، عَلّم على ظلي ، فلما عَلّم كما عُلّمَ ، هبّت فذهبت ، فَسُرَّ بما فسر له من مشكل الشكل ، فذلك سِر ﴿ **وإذ بوأنا** ﴾ فجعلا مكان استراحة البناء المعنى ﴿ **ربنا تقبل منا** ﴾ ، فلما فرغا فغرا فم السؤال ، يرتشفان ضرع الضراعة ﴿ **وأرنا مناسكنا** ﴾ »[1] .

للتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة ، عرّف الله مكانه لإبراهيم عليه السلام ، وملّكه أمره ليقيمه على هذا الأساس ، فهو بيت الله وحده دون سواه ، وليطهره للحجيج والقائمين فيه للصلاة ، فهؤلاء هم الذين أنشىء لهم البيت .

وهو أَوْلَى قبلة يتوجه إليها المسلمون ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، فالعقيدة هي تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء .

﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ الآية : مشهد حاضر كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن .. لا رؤيا الخيال ..

---

(١) المدهش ص ٧٥ .

نغمة الدعاء، وظلال الدعاء ، وجوّ الدعاء يُسمع وُيرى بعد أنْ كان غائبا ذاهبا.

وماذا في ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة ، وإيمان النبوة وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود ، وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلّمه لورثة الأنبياء ، وأنْ يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم .

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ [البقرة :١٢٨] .

إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام ، والشعور بأن قلبيهما بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالاالله .

﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ هذا طابع الأمة المسلمة التضامن .. تضامن الأجيال في العقيدة .. وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن .. إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الأول ، وشعور إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما ، نعمة الإيمان ، تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما ، وإلى دعاء ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام ، لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ، ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان ، وأن يريهم جميعا مناسكهم ، ويبين لهم عبادتهم ويتوب عليهم ، وأن لا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة **﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾** الآية ، وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم ﷺ بعد قرون وقرون ، بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

هذا البيت الحرام الذي قال فيه ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه وهو خليل الرحمن . هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروّعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم ؛ حتى هاجروا من جواره .. لقد أراده الله مثابة يثوب إليها

الناس جميعا ، فلا يروعهم أحد ، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم ، فهو ذاته طمأنينة وسلام .

هذا المسجد الحرام ، هذا البيت العتيق ، الذي أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار ، وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معمورا منذ إبراهيم عليه السلام ، ولن يزال .

تلك قصة بناء البيت الحرام ... وأذان الخليل بالحج إليه ليذكروا اسم الله - لا أسماء الآلهة المدعاة - ويطعموا البائس - على اسم الله - دون سواه .

فهو بيت حرام ... حرمات الله فيه مصونة ، وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود إلى جانب حرمة الدعاء وحرمة العهود والمواثيق ، وحرمة الهدنة والسلام - تلك قصة البيت -